

خطاب النساء في القرآن الكريم بين الإشارة والإثارة دراسة أسلوبية

دكتور أحمد جمال الدين أحمد
كلية الآداب - جامعة قناة السويس

هل تمتاز لغة المرأة وأسلوبها على لغة الرجل وأسلوبه ؟ سؤال فرضته علينا روح العصر ، ذلك الذي شاع فيه البحث عن حقوق المرأة ، فقاد ذلك البحث إلى الحديث عن الفرق في الشخصية بين الرجل والمرأة ، والفرق في أسلوب التفكير بين الرجل والمرأة ، والفرق بين عقل الرجل وعقل المرأة ... وهكذا .

وقد قاد هذا البحث ، أيضًا ، إلى السؤال الآتي ، في ميدان اللغة والتعبير :

هل يختلف أسلوب المرأة ولغتها عن أسلوب الرجل ولغته ؟

هل يختلفان إلى درجة تسوغ وجود ما يمكن أن يسمى بأسلوب المرأة ، وأدب المرأة ، والأدب النسوي إلى آخر هذه المصطلحات التي يكثر دورانها في مجالس المثقفين والمثقفات ؟؟

يحاول هذا البحث أن يجيب عن هذا السؤال من خلال النظر في خطابات النساء في القرآن الكريم ، وقد آثرنا أن تكون مادة البحث من النص للقرآني ، بوصفه ينبوع الفصاحة وغاية الفصحاء في كل زمان ومكان . ومن ثم نضمن للبحث أن تكون نتائجه نتائج صحيحة لا يساورها الشك ، فالقرآن الكريم بما أوتيت لغته من فصاحة قصوى يجعل الخطابات تعبر عن أصحابها تعبيرًا دقيقًا جدًا ، فأنت تلمس من كلمات المؤمن ما يعبر عن مكنون إيمانه ، وتلمس من كلمات المنافق ما يفضح كفره ونفاقه... وهكذا

وعلى هذا فإذا كان أسلوب النساء بوجه عام يختلف فعلاً عن أسلوب الرجال بمستوياته المختلفة (الصوتية . الصرفية . المعجمية . التركيبية) ... أقول : إذا كان هناك اختلاف وانميّاز لأسلوب المرأة ، فإن التعبيرات القرآنية ، الممثلة لذروة البلاغة سيتجلى فيها لا محالة هذا الانميّاز النسوي في خطاباتها القرآنية ولاسيما أن خطابات النساء في القرآن الكريم مثلت كل الشرائح النسوية في المجتمعات الإنسانية تقريبًا ؛ حيث مثلت الأم

(خطاب أم موسى) ، والبنت (خطاب ابنتي شعيب عليه السلام) ، والزوجة (خطاب كل من امرأة العزيز وامرأة فرعون وزوج النبي) ، والحبلى (خطاب امرأة عمران) ، والملكة (خطاب سبأ) ، والعبدة (خطاب مريم عليها السلام) ، والعجوز (خطاب امرأة إبراهيم عليه السلام) ، والأخت (خطاب أخت موسى عليه السلام) ومجموعة النساء (خطاب نسوة المدينة) مما يجعل مادة البحث ثرية في التعبير عن أسلوب النساء باختلاف شرائحهن .

إذن يبقى السؤال : هل تميزت خطاباتهن على مستوى اللغة والأسلوب بحيث نقول : إن هذه اللغة هي لغة امرأة وهذا الأسلوب هو أسلوب امرأة أم أن التمايز في خطاباتهن لا يكون إلا على مستوى الموضوعات التي تعالجها وتبرع فيها المرأة دون الرجل؟؟

كل هذه الأسئلة سوف يحاول البحث أن يزيح الستار عنها ، ولكن بين يدي البحث نرى أن من المناسب عرض الموضوعات الآتية لصلتها الوثيقة بالبحث ولما لها من دور في إضاءة فكرة البحث أمام القارئ .

أولاً : اللغة والأسلوب والفرق بينهما .

ثانياً : لغة المرأة وأسلوب المرأة .

ثالثاً : جمع خطابات النساء في القرآن الكريم .

ثم ننطلق بعد ذلك إلى تحليل خطابات النساء في القرآن الكريم على المستويات الأسلوبية المختلفة السابق ذكرها كاشفين عن تمايز أسلوب المرأة إن كان هناك وجه للتمايز .

أولاً . اللغة والأسلوب والفرق بينهما :

اللغة هي ذلك التعبير عن النظام المختزن لدى أبناء اللغة الواحدة في العقل الجماعي لهم ، وهذا النظام يقدم لهم البدائل المتاحة للاستعمال اللغوي الصحيح ، كما يبين لهم الأنماط اللغوية غير المتاحة ، والتي يعد استعمالها شكلاً من أشكال الخروج عن مقتضى الصحة اللغوية .

أما الأسلوب فإنه اختيار المبدع لما يناسب السياق بمعناه الواسع مما تتيحه اللغة من بدائل ، وعندما نقول السياق بمعناه الواسع ، فإننا نقصد كل عناصر السياق من مبدع

، يسعى إلى اختيار العناصر اللغوية المعبرة أدق تعبير عن أفكاره ومشاعره ، بحيث يكون الكلام بصمةً له على حد تعبير (بوفون) ، ومتلقٍ يجب على الكلام أن يكون مراعيًا لحاله ، فالمبدع يحاول بقدر ما أوتى من مقدرة بيانية أن ينقل المتلقي إلى الحالة التي يعايشها هو ، أو بمعنى آخر أن ينقله إلى نفس التجربة التي دفعته إلى هذا الإبداع⁽¹⁾، ورسالة لغوية يجب أن تكتنز عناصرها اللغوية من أصوات ومفردات وصيغ وتراكيب بالدلالات الفنية الموحية بغرض المبدع وحال المخاطب وطبيعة الموقف .

إن الأسلوب هو الاستعمال الحي للغة والذي يحمل شحنات عاطفية وفنية دالة ، تجعل من الخطاب خطابًا ذا إثارة يتجاوز الخطابات العادية التي تكتفي بمستوى الإشارة . فالخطاب ، كما حدده شارل بالي رائد الأسلوبية الأول ، خطاب حامل لذاته ، وخطاب حامل للعواطف والحاجات والانفعالات⁽²⁾.

فالخطاب الحامل لذاته هو ما نقصده بالخطاب الذي يشير إلى معناه لا يتجاوزه فهو خطاب نفعي يحقق الغاية الأصلية للغة ألا وهي تحقيق التواصل عن طريق الفهم والإفهام ، أما الخطاب الحامل للعواطف والخلجات والانفعالات فهو الخطاب الذي يتجاوز حدَّ الإشارة إلى حدود أُسمى من الناحية الإبداعية هي حدود الإثارة والإمتاع ، إنها اللغة الفنية ذات طريقة التعبير الخاصة التي يسلكها الأديب لتصوير ما في نفسه ونقله إلى سواه⁽¹⁾. إنها الأسلوب الذي لم يغفل عنه تراثنا القديم فعرفه عبد القاهر بأنه : الضرب من النظم والطريقة فيه⁽²⁾.

إن الأسلوب الجيد هو مبعث المتعة والإثارة في مقابل الكلام العادي الذي يمثل درجة الصفر . على حد تعبير رولان بارت . والذي لا يحمل سوى الإشارة لمعناه .

ثانيًا . لغة المرأة وأسلوبها :

(1) البلاغة الأسلوبية ص 235 .

(2) الأسلوبية والأسلوب ص 36 .

(1) انظر الأسلوب ص 40 ، 41 بتصرف .

(2) دلائل الإعجاز ص 468 ، 469

وضعت اللغة العربية في نظامها المختزن في العقل الجماعي لأبنائها مجموعة من القواعد الخاصة بالمرأة ، ولكن قبل أن نبين هذه القواعد نرى أن من الدقة أن نفرق بين لغة المرأة في حديثها عن نفسها ولغة غيرها في الحديث عنها أو معها .
أما لغة غيرها في الحديث عنها أو معها فإن اللغة وضعت مجموعة من القواعد يلتزم بها الآخر في خطابه المرأة ، فالمرأة لها ضمائر خطاب خاصة : (أنتِ . أنتنَّ . كِ . كنَّ . ياء المخاطبة) .

فيقول المخاطبُ المرأةَ : أنتِ تفعلينِ فعلتكِ ويقول المخاطب للنساء : أنتنَّ تفعلنِ فعلتكنَّ ، وكذلك وضعت اللغة قواعد للحديث عن المرأة فالحديث عن المرأة يكون بالضمائر (هي . ها . هنَّ . نون النسوة) فتقول : هي فعلت فعلتها (في المفرد) . هنَّ فعلن فعلتهنَّ (في الجمع) .

أما عندما تتحدث المرأة عن نفسها فإنها تقول (أنا) وتقول (فعلتُ) ، وتقول : (فَعَلْتُ) مستخدمة ضمائر المتكلم نفسها التي يستعملها الرجل عند التعبير عن ذاته .
وعلى هذا فإن لغة المرأة في تعبيرها عن ذاتها تكاد⁽³⁾ تتطابق مع لغة الرجل في تعبيره عن نفسه . ومن ثم فإن خصوصية المرأة في نظام اللغة العربية لا يبدو واضحاً إلا عند الحديث عن المرأة أو معها .

هذا فيما يتعلق باللغة أما الأسلوب فإن الحكم باختلاف أسلوب المرأة عن أسلوب الرجل أو عدم الاختلاف هو هدفنا في هذا البحث وسوف نمرُّ لتحقيق هذا الهدف على العناصر اللغوية بدءاً من الأصوات مروراً بالصيغ والمفردات انتهاءً بالتركيب ، مدققين فيها ومسائلين لها هل تؤثرُ المرأةُ أصواتاً بعينها أو صيغاً ومفرداتٍ دون أخرى أو أن هناك ظواهر تركيبية تستأثر بها النساء دون الرجال ؟!! كلُّ هذا من خلال خطابات

(3) قلت : تكاد ؛ لوجود بعض الاختلافات بين الرجل والمرأة في تعبير كلٍّ منهما عن ذاته ، كاستخدام تاء التأنيث مع الصفات فالمرأة تقول : أنا فاهمة ، واستخدام الاسم الموصول المؤنث في قول المرأة : أنا التي ... ونحوها ، وفي الحقيقة إن هذه الاختلافات ترجع إلى أن الصفات تحمل في الأساس بضمير الغائب فعندما أقول : أنا فاهم ، فالضمير المستكن بالوصف (فاهم) هو الضمير (هو) وليس أنا ، ومثل ذلك الاسم الموصول الذي يكون مرجعه الغائب وليس المتكلم ..

النساء في القرآن الكريم .

ثالثاً . جمع خطابات النساء الواردة في القرآن (عينة البحث) :

ذكرنا آنفاً أن خطابات النساء في القرآن الكريم تنوعت وشملت تقريباً كل الشرائح النسوية في المجتمع الإنساني ، فورد حديث للأُم والزوجة والبنات والملكة والعبدة والأخت ... إلخ

وفيما يلي عرض لخطابتهن المحكية عنهن في النص القرآني :

1. امرأة عمران "الحبلى": الآيات من سورة آل عمران

"إِذْ قَالَتْ امْرَأَةٌ عِمْرَانُ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(35) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ(36)" .

2. مريم "العابدة في المحراب":

. "قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ"(آل عمران 37) .

. "قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ" (آل عمران 47) .

. "قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا (18) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ

غُلَامًا زَكِيًّا (19) قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا(20) (مريم18

20) .

3. امرأة إبراهيم (العجوز الآيسة من الإنجاب) :

"قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ" (هود 72)

"فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرٍَّ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ" (الذاريات29) .

4. امرأة العزيز (المرأة المراودة) : الآيات من سورة يوسف

"وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ" (23)

"وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَالْأُخْرَىٰ سَبَدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ

بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" (25) .

"وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْنَهُنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ" (31).

"قَالَتْ ۖ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا
أَمْرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ" (32).

"قَالَتْ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ
(51) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (52) وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي
إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ" (53).

5. نسوة المدينة : الآيات من سورة يوسف

" وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ : امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي
ضَلَالٍ مُّبِينٍ" (30) .

" ... فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ"
(31) .

" قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ" (51) .

6. ملكة سبا (المرأة الملكة) : الآيات من سورة النمل

قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ(29) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ
الرَّحِيمِ(30) أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ(31) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا
كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُون(32)

" قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أُذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ(34) وَإِنِّي
مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاطِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ(35)

" ... قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأَوْتِنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ(42)

" قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(44)

7. امرأة فرعون :

"وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا
يَشْعُرُونَ" (القصص9).

" وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةً فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ
وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ" (التحریم11) .

8. أم موسى (الأم) .

وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ : قُصِّيهِ ... " (القصص 11) .

9. أخت موسى (الأخت)

"وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ" (القصص 12) .

10. ابنتا شعيب عليه السلام : الآيات من سورة القصص

"... قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصَدِرَ الرِّعَاءَ وَأُبُونَا شَيْخَ كَبِيرٍ" (القصص 23) .

"... قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا" (القصص 25) .

"قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ" (القصص 26) .

11. زوج النبي (صلى الله عليه وسلم) :

" قَالَتْ : مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا ... "

وسوف يعالج البحث المستويات اللغوية في نماذج من هذه الخطابات ؛ بغية الإجابة عن السؤال الرئيس في هذا البحث : هل ثمة انميّازٌ لأسلوب النساء به يعرفن وإليه ينسبن أو أن هذا من أوهام بعض المثقفين ؟

أولاً . المستوى الصوتي في خطابات النساء :

من المسلم به أن الصوت في ذاته غير ذي دلالة على معنى ، وإنما تتفجر طاقاته الدلالية بوضعه في سياقٍ يستثيره ويستنفره ويتآزر معه فإذا بهذا الصوت يمدُّ المتلقي بأحاسيس خادمة للسياق ، وذلك بالتعبير عن دلالاته أدقّ تعبير .

فعلى سبيل المثال إذا ذكرنا صوت الثاء منفرداً لم يستدع هذا الصوت أيّ معنى لدى سامعه ، ولا يتجاوز تناولنا له مستوى الوصف الشكلي الجاف ، فنقول هو صوتٌ مهموس رخو مخرجه بين طرف اللسان واللثة ... ، ولا نستطيع أن نضيف إليه منفرداً أيّ دلالة .

ولكنّ هذا الصوت نفسه تفجرت منه طاقات دلالية معبرة عن السياق في قوله تعالى : " وأما بنعمة ربك فحدث " فـصوت الثاء في (فحدث) أنشأ لدى المتلقي إحساساً

بما ينبغي أن يكون عليه التحديث بنعمة الله ، إن هذا التحديث ينبغي أن يكون هادئاً
ناعماً ليس فيه صخب المتباهين ولا خشونة المتعاليين على عباد الله ، إن صوت الثاء بما
فيه من همس وطراوة يشعر بصفات الرقة والليونة والدفع التي ينبغي أن يتحلى بها
المعلنُ نعمته على الناس .

وربما يكون هذا الصوت هو السبب في إثارة التعبير القرآني لهذا الفعل (حدث)
على أفعالٍ أخرى تؤدي معناه المعجمي العام كالفعل (اجهر) أو (اذكر) بالراء التكرارية
الصاخبة أو الفعل (أعلن) بالنون ذات الغنة الموحية في هذا السياق بالعلو و التباهي .

إذن تبين لنا أنه " ليس للصوت درجة قيمية داخل نفسه وإنما مهمته الوظيفية تكمن
في تأثيره الدلالي داخل منظومة السياق الذي يعتبر المكان الآمن الذي تؤدي فيه
الفونيمات أدوارها الوظيفية الدلالية للكلمات"(1) وما دام الأمر كذلك فإن الصوت والسياق
يتبادلان التأثير والتأثر فيما بينهما ، ولما كان السياق يشتمل على جوانب متعددة(2)،
أبرزها طبيعة المتكلم أو منشئ الخطاب بوجه عام منطوقاً كان أو مكتوباً من حيث
طبيعته النفسية والبيئية والثقافية ... أقول لما كان السياق من أبرز عناصره طبيعة المتكلم
فإن وجود علاقة بين الصوت والمتكلم تأثيراً وتأثراً بات أمراً لا جدال فيه .

ولكن أيّ مستوى صوتيٍّ نقصد !!؟

إن الصوت اللغوي له مستويان : مستوى كامنٌ في ذاته ويتحدد من خلال الوصف
اللغوي الدقيق له جهراً وهمساً ومخرجاً وقوةً وضعفاً ... إلخ ، ومستوى آخر يتمثل في
صورة أدائه ؛ أي كيف يُؤدَّى ؟

إن هذين المستويين للصوت هما مستويا القدرة والأداء فمستوى القدرة يعنى القدرة
اللغوية التي يمتلكها أبناء اللغة للتعبير عن أصوات لغتهم وفق ما تمليه عليهم قواعد هذه
اللغة ، وما تمدهم به من أصوات صامتة أو صائتة ، أمّا مستوى الأداء فهو كيفية

(1) انظر : علم اللسانيات الحديثة ، د عبد القادر عبد الجليل ص 543 وانظر كذلك للمؤشرات الإيقاعية في لغة الشعر .د/ مملوح عبد الرحمن ص 39 .

(2) من الجوانب المتعددة التي يشتمل عليها السياق جانب المخاطب بمكوناته النفسية والبيئية والثقافية إلخ بالإضافة إلى المكان والزمان اللذين يلور فيهما الخطاب وما فيهما من شخص
وأشياء وكل هذه الجوانب هي ما يسميه القدماء باللقام أو سياق الحال . انظر : بحثا لغة الحوار في سورة يوسف ص 3 .

استعمال أبناء اللغة هذه الأصوات .

وعندما نقول : إن ثمة تأثيرًا بين المتكلم والأصوات التي يستعملها ، إنما نقصد مستوى الأداء الصوتي ؛ إذ إن البحث يرى أنه ليس هناك أيُّ تأثيرٍ أو تأثيرٍ بين المتكلم والأصوات على مستوى القدرة اللغوية ، بمعنى أنه ليس هناك أصوات في اللغة يستخدمها المتكلم الهادئ وأخرى يستخدمها المتكلم الغاضب ، وأصوات يستخدمها المتكلم الغنى وأخرى يستخدمها المتكلم الفقير ...، وكذلك لا يوجد أصوات تستخدمها المرأة وأصوات يستخدمها الرجل .

وعلى هذا فإن محاولة الربط بين بعض الأصوات والمرأة يعدُّ تكلفًا بل ضربًا من ضروب الوهم اللغوي .

إلا أن هناك إشكالات قد تعترض ما ذهبنا إليه من عدم وجود علاقة بين الصوت اللغوي وجنس صاحبه من حيث ملكية كلٍّ من الجنسين له ملكية متكافئة ، هذه الإشكالات تتمثل في أن هناك بعض الإشارات للعلماء قديمًا وحديثًا توهم بعكس ما ذهبنا إليه ، وتشير إلى أن هناك أصواتًا أنثوية وأخرى ذكورية نذكر منها أصوات : التاء ، والثاء ، والنون .

فابن القيم يقول في معرض حديثه عن الفرق بين الإشارة لمذكر بالذال ، والإشارة لمؤنث بالتاء : "وخصت التاء بالإشارة إلى المؤنث لأجل الفرق ، وكانت التاء أولى لهمسها وضعف المؤنث ؛ ولأنها قد ثبتت علامة للتأنيث في غير هذا الباب ... وربما شركوا المؤنث مع المذكر في الذال فاكتفوا بالكسرة فرقًا بينهما⁽¹⁾ .

ويقول الأستاذ حسن عباس في دراسته عن خصائص الحروف العربية ومعانيها : "فالتاء هي تأنيق للسين الرقيقة ، وتأنيث لتاء التأنيث ، وكأني بالعربي لم يبدع صوت هذا الحرف إلا خصيصًا للأنثى ؛ ليميزها بالتاء حتى من النساء أنفسهن ؛ إيفاءً لحقها من الرقة والدمائة والإحاطة واللين ، فما كل امرأة تتوافر فيها خصائص الأنوثة وإن كانت

(1) بدائع الفوائد 1/ 190 عن القيم الصوتية ص 199 ،

أنثى ، فلفظة الأنثى إنما هي ألصق بالجنس من لفظة المرأة لتستقل التاء وحدها بعرش الأنوثة في لفظة الأنثى⁽²⁾.

ويُلَمِّح الدكتور عويض بن حمود في دراسته عن القيم الصوتية في الخطاب النسائي في القرآن الكريم إلى أن ثمة علاقة بين صوت النون وبين المرأة ، وذلك بعد أن وجد انتشار صوت النون في خطابات النساء حيث بلغت مائة وسبع عشرة مرة متبوعة المرتبة الأولى ، فيقول عن صوت النون : "فهو يصنف من فئة الأصوات الضعيفة ، ومن هنا نجد المناسبة واضحة ، فالمرأة بطبيعتها ضعيفة لطيفة ، والخطابات التي سيطرت فيها النون اتسمت بمظاهر الضعف واللفظ⁽³⁾ .

وهذه الإشارات لا أرى أنها تثبت للمرأة أصواتاً خاصة على مستوى الأسلوب ، وإنما تؤكد ما ذهبنا إليه عند حديثنا عن اللغة والأسلوب من أن اللغة جعلت أصواتاً تُخاطَبُ بها النساءُ ويُحَدَّثُ بها عن النساء ، فالتاء للتأنيث ، والنون لخطاب النساء أو الحديث عنهن (قلْن) (قلن) والتاء كما أشار الأستاذ حسن عباس من الأصوات التي يكثر دورانها عند الحديث عن النساء ومتعلقاتهن من رقة وطراوة (أنثى . الثأدة (المرأة الكثيرة اللحم) الثدي (للمرأة) ، الثدي (غير العذراء) ، الثرى (التراب الندى) الثعد (الغصن الطري من البقل) ... وهكذا .

أقول إن هذا كله يؤكد أن اللغة العربية وضعا قد خصصت أصواتاً للنساء تُخاطَبُ بها أو يُحَدَّثُ إليها بواسطتها ، وهذا أمرٌ لا جدال فيه ، أما ما نحن بصدد من الحديث عن انمياز المرأة في حديثها بأصوات تدل على جنسها وتختلف عن الرجل ، فهذا ما نستبعده ، ولا يوجد من الإشارات السابقة ما يدعمه ، اللهم إلا إشارة الدكتور عويض التي تربط بين ضعف صوت النون ، الذي كثر دورانه في خطابات النساء في القرآن الكريم ، وضعف المرأة بطبيعتها .

وهذه الإشارة أوقعت الدكتور عويض في تناقض حيث يقول في موضوع آخر

(2) خصائص الحروف العربية حسن عباس منشورات اتحاد الكتاب العرب ص 60 .

(3) القيم الصوتية في الخطاب النسائي ص 200 .

"ودراستنا هذه تثبت . في الجملة . من خلال النص القرآني عدم وجود صلة ذات دلالة بين الجنس وبين الأصوات الواردة في خطابه"⁽¹⁾ ومن ثم كان أحرى بالدكتور عويض أن يكتفي في إشارته بالربط بين ضعف صوت النون وطبيعة الخطابات التي اتسمت بمظاهر الضعف واللفظ"⁽²⁾.

نعم إن الأصوات ذات دلالة ، ولكنها دلالة ترتبط بالموضوع وبالمعنى ولا ترتبط . فيما نرى . بجنس المتكلم اللهم إلا على مستوى الأداء الصوتي من ميل المرأة إلى تدقيق الأصوات ومطها وهذا يُتركُ لخيال المتلقي الذي يُسقطُ إحساسه بأنوثة المتكلمة على بعض الأصوات كما يُسقطُ إحساسه بطبقتها الاجتماعية ، فالأداء الصوتي للصوامت والصوائت لامرأة مثقفة يختلف عن الأداء الصوتي لامرأة ساقطة ، وهذا وذاك يختلفان عن الأداء الصوتي لامرأة من الريف وهكذا .

أما أن نقول إن هناك أصواتاً نسوية وأخرى ذكورية يتمايز بهما خطاب المرأة عن خطاب الرجل فهذا ما لا يراه البحث ألبتة .

نماذج من ارتباط الأصوات والمعنى في خطابات النساء :

(1) صوت النون في خطاب امرأة فرعون :

كثير دوران صوت النون في خطاب امرأة فرعون⁽¹⁾ . (عين . أن . ينفعنا . نتخذ . ابن . عندك . الجنة . نجنى من فرعون . نجنى من الظالمين) ، وهذه الكثرة التي تصل إلى درجة الإلحاح على تكرار هذا الصوت من خلال تكرار بعض الكلمات والتراكيب مثل (نجنى من ... ونجنى من ...) وزيادة بعض الكلمات التي يمكن للتركيب أن يستغني عنها مثل (عندك) في قوله تعالى : " وابن لي عندك بيتاً في الجنة " .

(1) القيم الصوتية ص 199 .

(2) القيم الصوتية ص 200 .

(1) القيم الصوتية ص 200 .

إن هذا الشيوخ لصوت النون لئُلقي على التراكيب سحابةً من الترنيمة الحزينة ، وهذا الشعور يتجلى بوضوح في آية التحريم "رب ابن لي عندك بيتًا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين" التحريم11 .

والمناسبة واضحة جدًا بين هذا الشيوخ لصوت النون وموقف امرأة فرعون ، فصوت النون حرف مجهور أغن⁽²⁾ وهو كذلك رخوٌ مستقل مصمت ، ويصنف من الأصوات الضعيفة⁽³⁾. وهذا الضعف في صوت النون وهذه الغنة الحزينة تجعله يُشيعُ جوًّا من الإحساس بضعف صاحب الخطاب والشعور بالحزن الذي يسود الموقف ، وهذا يتناسب مع حالة امرأة فرعون تلك المرأة المؤمنة التي تعيش مع رأس من رعوس العتوِّ في الكفر هو فرعون ، ومع ذلك تتمسك بإيمانها فتتأجى ربها بأن يبنى لها بيتًا في الجنة ، عوضًا عن الظلم الذي تشعر به في ظل عزلتها العقدية فجاءت مناجاتها لله تعالى مناجاة المستضعفين المبتهلين الراجين الخير من ربهم .

(2) صوت اللام في خطاب أخت موسى :

صوت اللام هو الصوت الأكثر حضورًا في خطاب النسوة بعد صوت النون ، وكان أكثر وجودًا في خطاب أختي موسى ، حيث ورد سبع مرات بنسبة 18%⁽¹⁾. (هل ، أدلكم ، على ، أهل ، يكفلونه ، لكم ، له) وإذا ما بحثنا عن سرِّ ذلك وجدناه في طبيعة صوت اللام ، فهو صوتٌ يوحى بمزيج من الليونة والمرونة والتماسك والالتصاق⁽²⁾. وقد سبق ابن جني في الإشارة إلى هذا الوصف لصوت اللام حين قال : "والمعنى الجامع لها المشتمل عليها الإصحاب والملاينة"⁽³⁾ وذلك في معرض حديثه عن التقليلات الصوتية للجذر (س م ل) (س ل م) (م س ل) ... وهكذا وهذا الوصف للام يتضافر مع طبيعة خطاب أخت موسى فهو خطاب يتسم بالملاينة

(2) انظر سر صناعة الإعراب 435/2 .

(3) انظر التجويد الواضح ص 329 .

(1) القيم الصوتية ص 204 .

(2) انظر خصائص الحروف ص 79 .

(3) الخصائص 137/2 .

والاستعطاف من جهة والتماسك من جهة أخرى ؛ فهي تريد ألا يعرف أحد حقيقة علاقتها بهذا الرضيع وتريد أن تخفي ولها عليه ؛ أي تريد أن تبدو متماسكة أمام أهل فرعون وحاشيته ، وفي الوقت ذاته تريد أن تستعطفهم وتلاينهم حتى يستجيبوا لرغبتها في دَلِّهم على أهل بيت يكفلون هذا الرضيع ، وفي شيوخ اللام بما فيه من ليونة وتماسك في آنٍ واحد دلالة على مشاعر هذه الأخت الولهة المتماسكة تجاه أخيها الرضيع .

(3) صوت الهمزة في خطاب ابنتي شعيب عليه السلام :

ورد عشر مرات بنسبة 10.5% (4) . وذلك في الكلمات :

(الرءاء ، أبونا ، إن ، أبى ، أجر ، أبت ، استأجره ، استأجرت ، الأمين)

وصوت الهمزة يصنف من الأصوات متوسطة القوة ، فهو مجهور شديد مع ما فيه من الاستفحال والانفتاح والإصمات .

يقول ابن جني في معرض مقارنته بين كلمتي (الخذأ) من الخذو ، بمعنى استرخاء الأذن ، و (الخذأ) بمعنى ضعف النفس " ومعلوم أن الواو لا تبلغ قوة الهمزة فجعلوا الواو لضعفها للعييب في الأذن ، والهمزة لقوتها للعييب في النفس ؛ من حيث كان عيب النفس أفحش من عيب الأذن(1) .

فالهمزة تشير إلى أوصاف القوة والصرامة والجدية وهى أوصاف تتناسب مع ابنتي نبي الله شعيب ، ومع كل مؤمنة يأتي كلامها مغلفاً بقناع من الصرامة والقوة والاعتداد بالنفس والثقة وهى أوصاف تناسب النهي عن خضوع المؤمنات بالقول والملاينة فيه .

ثانياً المستوى الصرفي في خطابات النساء :

الصيغة الصرفية هي مجموعة الحركات والسكنات التي ترد في نظام مرتب متصف بالثبات في جميع المواد اللغوية التي تتحقق فيها دلالة هذا القلب الوظيفية(2) . ومعنى هذا أن الأوزان التي تجسدت عليها هذه الحركات والسكنات مثل : فاعل ومفعول

(4) القيم الصوتية ص 208

(1) الخصائص 2/ 66 .

(2) الوحدات الصرفية ص 60 .

وافتعل واستفعل وتفاعل ... عندما تتضافر مع المعنى المعجمي للمادة اللغوية ينشأ عنهما المعنى اللغوي العام للكلمة .

فنقول مثلاً : إن معنى (ضارب) هو فاعل الضرب المعروف و(مضروب) هو من وقع عليه الضرب المعروف وهكذا ، ونحن نرى أن هذه الصيغ محايدة لا ذكورية ولا أنوثية فيها ، فهي ، كما أشرنا في الأصوات ، مواد خام يمكن أن يوظفها المبدع أو المبدعة ، فيستثيرها في السياق الأدبي لتشع ما يريد من معانٍ وأحاسيسٍ خادمةٍ للسياق ، وليس هناك صيغ توظفها المرأة دون الرجل أو العكس ، بحيث يمكن أن نقول : إن هذه صيغ تشيع في الألب النسوي وتلك صيغ تشيع في الألب الكوري . وهذا عندي من البدهيات إلا أن هناك من هزئ هذه البدئية وحاول أن ينسب مجموعة من الصيغ الصرفية للرجال وأخرى للنساء بحيث يمكن التدليل على نسائية الخطاب أو ذكوريته من خلال شيوع صيغ معينة مقارنة بصيغ أخرى .

هذه المحاولة تمثلت في معادلة (بوزيمان) وتطبيقاتها على بعض النصوص الأدبية . ومعادلة بوزيمان هي فرضيةٌ وضعها العالم الألماني بوزيمان وطبقها على الأدب الألماني في دراسة نُشِرت له عام 1925 .

وخلاصة هذه الفرضية أنه يمكن قياس أدبية الخطاب وانفعاله بمعرفة نسبة صيغ الأفعال إلى صيغ الصفات ، فكلما كانت الأفعال أكثر من الصفات دلّ ذلك على أدبية النص وانفعاله . ويتم حساب هذه النسبة بإحصاء الكلمات التي تنتمي إلى صيغ الأفعال ، وكذلك الكلمات التي تنتمي إلى صيغ الصفات ثم إيجاد خارج قسمة عدد الأفعال على عدد الصفات ، فإذا تجاوز خارج القسمة الواحد الصحيح كان الخطاب انفعاليًا أدبيًا ، وإذا قلّ عن الواحد دلّ ذلك على علمية الخطاب بمعنى أنه ينتمي إلى الأسلوب العلمي . وتُلخّص هذه الفرضية في المعادلة :

نسبة الفعل إلى الصفة = عدد الأفعال ÷ عدد الصفات

وكان من تداعيات هذه المعادلة القول بأن هناك مؤثراتٍ في هذه النسبة ، فمثلاً هذه النسبة ترتفع عند صغار السن من الأطفال والشباب ؛ ذلك مقارنةً بالخطابات

الصادرة عن كبار السن حيث تقل هذه النسبة ؛ نظراً لزيادة عدد الصفات وانخفاض عدد الأفعال ومن المؤثرات التي تعنينا في هذا البحث القول بأن الجنس يؤثر أيضاً في هذه النسبة ارتفاعاً وانخفاضاً ؛ حيث تميل النسبة إلى الارتفاع مع النساء ؛ أي تزيد الأفعال على الصفات في خطابات النساء ، حيث إن خطابات النساء تتسم بالانفعالية والعاطفة مقارنة بخطابات الرجال والعكس صحيح ، حيث تميل هذه النسبة إلى الانخفاض في خطابات الرجال ...

"ويكون هذا الفرض وارداً في قياس الناتج الأدبي لدى النساء (أو ما شاعت تسميته بأدب المرأة) عند مقارنته بنظيره عند الرجال شرط أن تؤخذ المؤثرات الأخرى المتعلقة بالصياغة والمضمون في الاعتبار"⁽¹⁾

وقد حاولنا تطبيق هذه الفرضية واختبارها على خطاب نسائي في القرآن الكريم ، وكان علينا في المقابل أن نبحث عن خطاب رجالي في القرآن الكريم أيضاً يتناول الموضوع نفسه ؛ حتى لا يؤثر اختلاف الموضوع في النسبة . وقد كان ذلك ، حيث وجدنا خطاب امرأة إبراهيم عليه السلام حين بُشِّرَ بولد (إسحق عليه السلام) واستكراها لهذه البشارة ؛ نظراً لأنها عجوز طاعنة في السن وجدنا هذا الخطاب تقول فيه فيما يحكيه عنها ربُّ العزة "

"ياويلتى ألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً ، إن هذا لشيءٌ عجيب "

(هود : 72)

وفي موضعٍ آخر :

"فأقبلت امرأته في صرةٍ فصكت وجهها وقالت : عجوز عقيم"

(الذاريات : 29)

وقد قارنا خطابها هذا بخطاب زكريا عليه السلام في الموضوع نفسه حيث بُشِّرَ بولد (يحيى عليه السلام) فاستكر ؛ نظراً لأنه رجل عجوز طاعن في السن يقول فيما يحكيه

(1) الأسلوب ص 82 د/ سعد مصلوح .

عنه رب العزة :

"أنتى يكون لي غلامٌ وقد بلغني الكبر وامرأتى عاقر" (آل عمران 40)

وفي موضع آخر : " أنتى يكون لي غلام ، وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً" (مريم : 8) .

فوجدنا الآتي :

. عدد الأفعال في خطاب امرأة إبراهيم هو فعلٌ واحد فقط هو الفعل (ألد) من الآية (72) سورة هود .

. عدد الصفات في خطابها هو خمس : (عجوز . شيخاً . عجيب) من الآية (72) من سورة هود و(عجوز . عقيم) الذاريات : 29 .

وبقسمة عدد الأفعال على عدد الصفات تكون النتيجة 5/1 .

في حين أن عدد الأفعال في خطاب زكريا عليه السلام هو أربعة (يكون) على تمامها) . بلغني) من الآية (40) من آل عمران و(يكون) على تمامها) . بلغت) من الآية (8) من سورة مريم ، في حين أن عدد الصفات في خطابه ثلاث صفات هي : (عاقر) في آل عمران و(عاقراً. عتياً) في مريم وبقسمة عدد الأفعال في خطاب زكريا عليه السلام على عدد الصفات تكون النتيجة 3/4 .

ومعنى هذا أن الأفعال الجارية على لسان زكريا عليه السلام أكثر من الأفعال الجارية على لسان امرأة إبراهيم ، والصفات الجارية على لسان زكريا عليه السلام أقل من تلك الجارية على لسان امرأة إبراهيم ، وتظل هذه النتيجة نفسها مع حذف المكرر .

أفعال زكريا عليه السلام أكثر من أفعال امرأة إبراهيم وصفاته أقل من صفاتها .

وعلى هذا يظهر تهافت هذا الفرض ؛ إذ كان المتوقع أن تكثر صيغ الأفعال مقارنة بصيغ الصفات على لسان امرأة يغلب عليها الخطاب الانفعالي العاطفي ، وتقل صيغ الأفعال مقارنة بصيغ الصفات على لسان رجل يغلب عليه الخطاب العقلاني ، ولاسيما أن الموضوع واحد .

وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه من عدم وجود صيغ ينماز بها الخطاب النسوي على

الخطاب الذكوري أو العكس . فالصيغ الصرفية كالأصوات مواد لغوية محايدة تهب نفسها للمبدع الذي يستطيع أن يفجر منها طاقاتها الفنية ، ويجعلها مشعة بالإيحاء الأدبي الملائم للسياق بغض النظر عن كونه رجلاً أو امرأة .

ثالثاً . المستوى التركيبي في خطابات النساء :

الظواهر التركيبية من حذف وزيادة وتقديم وتأخير وفصل ووصل ، ... إلخ ، تمثل إمكانات لغوية عامة لا يمكن أن يختص بها جنس دون آخر ؛ لذا فإن سائر الظواهر التركيبية نجدها تجري في أسلوب الرجل والمرأة على السواء نكتفي بذكر نموذجين من الظواهر اللغوية الواردة في خطابات النساء في القرآن الكريم للتدليل على عمومية هذه الظواهر التركيبية وعدم كونها سمة من سمات أدب الرجل أو أدب المرأة .

1. ظاهرة التكرار :

من الظواهر التركيبية في خطاب امرأة عمران تكرر (إن) في قوله تعالى حكاية عنها :
.إني نذرت لك ما في بطني محرراً .
.إنك أنت السميع العليم .
.إني وضعتها أنثى .
.وإني أعيذها وذريتها من الشيطان الرجيم .
وهذا التكرار للحرف (إن) يحمل توكيداً لنيتها الصادقة الدالة على إخلاص عقيدتها قبل الوضع (إني نذرت ... ، إنك أنت السميع العليم) .
كما يعبر عن خشيتها من العقاب لعدم الوفاء بالنذر ، بعد الوضع ، لكون المولود أنثى (إني وضعتها أنثى ، إني سميتها مريم ، إني أعيذها وذريتها ...) .
وقد ورد التكرار أيضاً في خطاب امرأة فرعون حين قالت فيما يحكيه عنها رب العزة : (ونجني من فرعون وعمله ، و نجني من القوم الظالمين) (التحریم 11) .
وهذا التكرار يحمل لهفة المؤمن للنجاة من فرعون وقومه والرغبة الملحة في الخلاص .

وظاهرة التكرار ظاهرة عامة يستخدمها كل من يسعى إلى إيصال معنى التوكيد بالإلحاح على معنى ما ، لا فرق في ذلك بين رجل وامرأة .

2. ظاهرة الحذف :

وردت ظاهرة الحذف في خطاب امرأة فرعون : (قريت عين لي ولك) والمحذوف هو المبتدأ والتقدير (هو قرّة عين) والمراد موسى عليه السلام . والحذف هنا يراد به استفتاح كلامها بما يطمئن فرعون تجاه هذا الطفل الذي يريد قتله ؛ إذ إن استفتاح الحديث بلفظ يُدخل السرور والبهجة على النفس (قرّة عين) يطمئن المستمع ويُحدث فيها ارتياحاً وطمأنينة .

كذلك وردت ظاهرة الحذف في خطاب امرأة إبراهيم حين قالت فيما يحكيه عنها رب العزة : "فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم " حيث حذف المبتدأ أيضاً في قولها : (عجوز عقيم) والتقدير : (أنا عجوز عقيم) ، وذلك في معرض استنكارها بشارة الملائكة بأنها ستلد مع ما هي عليه من عجز وكبر يستحيل معهما ، من وجهة نظرها ، أن تلد كما تلد الصغيرات في السن ، وقد جاء الحذف معبراً عن سيطرة شعور الكبر والعجز عليها حتى نسيت ذاتها (أنا) ولم تر في ذاتها سوى أنها عجوز عقيم .

وكما ذكرت في ظاهرة التكرار فإن ظاهرة الحذف ظاهرة تركيبية من ظواهر اللغة عامة يستخدمها كل أبناء اللغة رجالاً ونساء .

إن هاتين الظاهرتين من ظواهر التركيب اللغوي وغيرهما ملك شائع لأبناء اللغة تحسن إذا وظّفت فنياً للتعبير عن غرض المبدع والعكس صحيح ، ومن التكلف المقيت أن نجعل ظاهرة لغوية سمة للرجل دون المرأة أو خصيصة من خصائص أدب المرأة دون أدب الرجل .

وعلى هذا فإننا نرى أن اللغة بمستوياتها المختلفة (الأصوات ، والصيغ ، والتراكيب) تهب عناصرها وإمكاناتها للمبدع الذي يستطيع أن يفجر طاقاتها الفنية ، لا فرق في ذلك بين أدب الرجال أو أدب النساء .

نعم لا فرق بين أدب الرجل وأدب المرأة على هذه المستويات اللغوية المحايدة ؛ وإن كان ثمة تمايز فإننا نراه قد يتجسد في تناول بعض الموضوعات التي تعبر عن خصوصية المرأة بوصفها أنثى ، فالمرأة تتناول وتجيد تناول موضوعات أنثوية كتصوير حالة الأم والمراهقة والحببية والعاشقة إلخ . وعندما نقول : تجيد تناول هذه الموضوعات فإننا نقصد أنها تحقق درجة عالية من المصادقية لدى متلقي أدبها .

كما أن المرأة تميل في أدبها إلى استخدام المفردات الدالة على طبيعتها الأنثوية المائلة إلى الحب والعاطفة ، فتكثر من ألفاظ : الحب ، الهوى ، الأشجان ، حتى في موضوعات قد تبدو بعيدة عن حقل هذه الألفاظ .

إلا أننا مع ذلك نؤكد أن الأديب الرجل يستطيع أن يتناول مثل هذه الموضوعات الأنثوية ويكثر من هذه المفردات العاطفية ، ولا يمكن أن نتلمّس من أسلوبه أنه رجل ، ولنا في الروائي إحسان عبد القدوس خير مثال على ذلك ، حيث يشار إليه باعتباره أحد أهم الكتاب الذين تناولوا مشاعر وأحاسيس المرأة بصدق في أعمالهم ؛ حتى إن النقاد كانوا يتعجبون من قدرته بوصفه رجلاً على النفاذ إلى قلوب النساء وعقولهن وفضح ما يجري بخواطرهن .

إذن لا أرى أن يقيّد الأدب الذي هو في ذاته حر بوصف (نسوي) أو (رجولي) .

فالأدب أدب مادته اللغة وثمرته التأثير الناشئ عن الصدق ومادام أمر الأدب متعلقاً باللغة والصدق وهما ليسا حكراً على جنس دون آخر ، فإن البحث لا يرى ما يمكن أن يعوّل عليه في تأصيل واعتماد ما يطلق عليه البعض مصطلح "الأدب النسوي" .

الخاتمة

بعد هذه الرحلة الماتعة مع خطابات النساء في القرآن الكريم ، تبين للبحث ما يلي :

1. تتنوع الخطاب النسوي في القرآن الكريم ؛ بحيث شمل كل الشرائح النسوية تقريباً في المجتمع الإنساني ، فقد تناول الخطاب النسوي خطاب الأم والأخت والابنة والزوجة الصالحة والملكة والعابدة والعجوز ... ، وهذا التنوع جعل هناك الكثير من الطمأنينة تجاه النتيجة المراد الوصول إليها وهي الإجابة عن السؤال : هل ثمة انميأز لأسلوب المرأة على الرجل أو لا ؟ وذلك من خلال النموذج المعتمد للبلاغة اللغوية ألا وهو الخطاب القرآني الملقى على ألسنة هؤلاء النسوة .
2. مع أن اللغة وضعت للمرأة مجموعة من القواعد لخطابها (كالضمائر أنتِ وتاء الخطاب المكسورة) وللحديث عنها (كالضمائر هي وهن والنون) ، إلا أن اللغة لم تفرق بين الرجل والمرأة في ضمائر المتكلم (أنا والتاء والياء) .
3. كما لم تفرق اللغة بين ذاتية الإنسان في حديثه عن نفسه سواء أكان رجلاً أم امرأة فإن الأسلوب الذي هو الاختيار من البدائل المتاحة لغوياً أمام المبدع لم يجعل من بدائله أصوات لا تختارها إلا المرأة أو العكس ، بل ترك بدائله للمبدع يختار منها ما يدعم إبداعه ويخدم تجربته لتخرج للمتلقي متوهجةً بإحساسه حاملةً صدقاً وتأثيراً .
4. أثبت البحث عدم وجود ما يمكن أن يطلق عليه أصوات أنثوية ، فلا يمكن أن نستدل على أسلوب مبدعة من استخدامها لأصوات معينة ، وعزا البحث الإشارات التي قد يفهم منها وجود علاقة بين بعض الأصوات والمرأة إلى أن هذا صحيح على مستوى

الوضع اللغوي فقط كما في الحديث عن أصوات التاء والنون والتاء ، أما على المستوى الأسلوبي فلا يرى البحث إلا أن الأصوات تؤثر وتتأثر بالموضوع والغرض الذي تستخدم فيه بغض النظر عن كون المبدع رجلاً أو امرأة .

5. الصيغ العربية صيغ محايدة تهب نفسها لأبناء اللغة كلهم ، وعلى المبدع المجيد أن يستتق منها ما يخدم الموضوع ويؤثر فيه تأثيراً دالاً على صدقه ويجعله بدوره مؤثراً في المتلقي ، وعلى هذا فند البحث محاولة الربط بين بعض الصيغ والجنس ، تلك التي تمثلت في معادلة (بوزيمان) التي جعلت غلبة صيغ الأفعال على صيغ الصفات دليلاً على عاطفية الخطاب ، ومن ثم فإنه يشير إلى جنس المرأة لما عُرف عنها من غلبة العاطفة . وبعد مقارنة الباحث بين خطابين في موضوع واحد أحدهما لامرأة والآخر لرجل تبين عدم توافق نتائج هذه الفرضية مع نتائج المقارنة ، مما يؤكد ما ذهبنا إليه من حيادية الصيغ بين أسلوب الرجل وأسلوب المرأة . وما قيل في الصيغ يقال في التراكيب وظواهرها في العربية .

6. علاقة التأثير والتأثر إنما تكون بين الأسلوب وطبيعة الموضوع وإحساس منشئه وقد تجلّى ذلك بوضوح من خلال النماذج التي عرضناها من خطابات النساء .

7. ذهب البحث إلى عدم صحة تقييد الأدب الذي هو بطبيعته حر لا يُقيد بوصف "النسوي" أو "الذكوري" ، فالأدب كما أنه طليق لا وطن له ، كذلك هو طليق لا قيد عليه ، قصارى ما يمكن قوله هو أن هناك أدباً وظفت عناصره الأسلوبية من أصوات وصيغ وتراكيب ومفردات لإكساب الموضوع مصداقية وتأثيراً يدفع المتلقي إلى معايشة النص كما يعايشه مبدعه الإنسان فكراً وإحساساً ، بصرف النظر عن جنس هذا الإنسان .

8. ليس كل خطاب ينتمي إلى نصّ بلغ ذروة البلاغة كالقرآن الكريم يتعين كونه خطاباً حاملاً لشحنات ذات إثارة فنية يُبتَغى من ورائها دلالات هامشيةً كامنّة خلف أصواته وصيغته ومفرداته وتراكيبه ، بل يمكن أن تكون ثمة خطابات تكتفي بمستوى الإشارة إلى المعنى الأساسي لا تتجاوزه ، وقد لاحظ البحث ذلك في قوله تعالى "من أنبأك هذا" فهو خطابٌ محكيٌّ عن زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وهو فيما أرى يشير

إلى معناه الأساسي دون دلالات هامشية ، فهو خطاب نفعي الغرض منه الاستفهام ليس أكثر . ومعنى هذا أن خطابات النساء في القرآن الكريم ، بله الخطاب القرآني بعامة ، تنوعت بين الإثارة الفنية المتمثلة في النماذج التي عرض لها البحث ومجرد الإشارة لأصل المعنى .

المراجع

- . الأسلوب دراسة لغوية إحصائية ، د/ سعد مصلوح ، عالم الكتب ، ط2، 1994 .
- . الأسلوبية والأسلوب ، عبد السلام المسدي ، طرابلس . ليبيا ، الدار العربية للكتاب ، دون طبعة ، دون تاريخ .
- . بدائع الفوائد لابن القيم ، تحقيق هشام عبد العزيز عطا وآخرين ، مكتبة نزار مصطفى الباز ، مكة المكرمة ، ط1 ، 1416هـ ، 1996م .
- . البلاغة والأسلوبية ، د/ محمد عبد المطلب ، مكتبة لبنان ، الشركة المصرية العالمية للنشر ، لونجمان ، ط1 ، 1994 .
- . التجويد الواضح للشيخ أحمد الطويل ، دار ابن خزيمة ، الرياض ، ط1 ، 1420هـ ، 2000م .
- . خصائص الحروف العربية ، الأستاذ/ حسن عباس ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ،

1998م .

. دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ، قرأه وعلق عليه الشيخ محمود شاكر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

. سر صناعة الإعراب ، ابن جني ، تحقيق د/ حسن هندأوي ، دار القلم ، ط2 ، 1993

. علم اللسانيات الحديثة ، د عبد القادر عبد الجليل ، دار صفاء عمان ، ط1 ، 2002

. القيم الصوتية في الخطاب النسائي في القرآن الكريم ، دراسة دلالية ، د/ عويض بن حمود العطوي ، مجلة جامعة الملك سعود ، م20 ، الآداب (2) ، 1429 هـ ، 2008 م

. لغة الحوار في سورة يوسف دراسة أسلوبية ، كتاب المؤتمر الأول للسرديات ، كلية الآداب جامعة قناة السويس ، 2008 م .

. المؤثرات الإيقاعية ، د ممدوح عبد الرحمن ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1994م .

. الوحدات الصرفية ، د/ أحمد عبد العظيم ، دار النصر للتوزيع والنشر ، جامعة القاهرة ، ط1 ، دون تاريخ .